وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر – بسكرة –
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم العلوم الاجتماعية
شعبة: الانثروبولوجيا

دروس في :

منهجية البحث الانثروبولوجي وادواته

موجهة الى طلبة السنة الثانية ليسانس تكوين توجيهي في الانثروبولوجيا

من اعداد:

الدكتور: **الطيب العماري**

السنة الجامعية *2018 – 2019*

خطـــة البحـــث:

- مقدمـــة.

I- مدخـــل:مفهوم الأنثروبولوجيا وعلاقتها بالعلوم الأخرى.

1- مفهوم الانثروبولوجيا.

2- الأنثروبولوجيا وصلتها بالعلوم الأخرى.

II- منهجية البحث الانثروبولوجي :

1- تعريف المنهج.

2- علم المناهج (المنهجية).

3- المنهج العلمي وأهدافه.

4-الاتجاهات والمداخل النظرية في الدراسة الانثروبولوجية.

III- خطوات البحث الأنثروبولوجي وأدواته.

1- العمليات التحضيرية للبحث.

2- الدراسة الميدانية وأدوات البحث الأنثروبولوجي:

أ- الملاحظة بالمشاركة.

ب- طريقة المقابلة.

جـ- طريقة مدخل تاريخ الحياة.

د- طريقة الاختبارات النفسية.

هـ- طريقة المقارنة.

IV- الصعوبات التي تواجه البحث الأنثروبولوجي:

1- صعوبات ترتبط بالاختفاء التدريجي للمجال التقليدي للبحث الأنثروبولوجي.

2- صعوبات ترتبط بطبيعة المنهج الأنثروبولوجي.

3- صعوبات ترتبط بشخصية الباحث.

4- صعوبات ترتبط بتطبيق الطريقة الأنثروبولوجية في دراسة المجتمعات المعقدة.

V- الخاتمـــــــة.

VI- قائمة المراجع.

المقـــدمـــــة:

من الحقيقة التي تقال أن البشرية حققت منذ القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين نقلة نوعية وسريعة في اكتساب المعارف والعلوم المختلفة في فهم كل ما يتعلق بالإنسان، ويعود هذا إلى التطور العلمي الكبير الذي نتج عنه زيادة في التخصصات التي صاحبتها بالطبع عملية تطور للنظريات والمناهج والأدوات التي من خلالها يمكن الوصول إلى المزيد من النتائج العلمية الدقيقة التي تكون أقرب إلى فهم كل الظواهر.

وإذا كانت العلوم التطبيقية والتجريبية المجردة مثل البيولوجيا والفيزياء والرياضيات ...إلخ نجحت في أن تؤسس لمناهج ثابتة تعتمد بالدرجة الأولى على المنهج التجريبي فإن الأمر يختلف تماما بالنسبة للعلوم الاجتماعية والإنسانية المختلفة والتي تجعل من السلوك الإنساني هدفا لهذه الدراسات والنظريات، فالسلوك الإنساني متغير باستمرار حسب المكان والزمان وهذا ما جعل دراسته من الأمور المعقدة خاصة فيما يتعلق بالطرق والمناهج والأدوات ووسائل الدراسة، وانطلاقا من هذا ظهرت العديد من التخصصات الإنسانية التي تحاول أن تدرس السلوك والنشاط الإنساني من زوايا متعددة وفي مواقف مختلفة، فظهر علم الاجتماع، والاقتصاد وعلم النفس والأنثروبولوجيا ... إلخ وتعددت مناهجها ومداخلها.

وسوف نركز في بحثنا هذا على هذا العلم الحديث النشأة الذي أخذ في التوسع والانتشار والازدهار بشكل كبير وهو علم الأنثروبولوجيا، هذا العلم الذي يهتم بدراسة الإنسان من كل جوانبه.

وعلى خلاف العلوم الاجتماعية المختلفة التي تهتم بوصف وتحليل السلوكات الظاهرة للإنسان وعادة ما تكون ظواهر منفصلة، وهي تستخدم في ذلك مناهج متعددة ومنفصلة مثل المدخل الاقتصادي لتفسير النشاطات الاقتصادية للإنسان، والمدخل السوسيولوجي لتفسير العلاقات الاجتماعية .... إلخ فإن الأنثروبولوجيا تستخدم كل هذه المداخل مجتمعة لتحليل وتفسير السلوكات والنشاطات الإنسانية، لأن الأنثروبولوجيا تبحث في العلاقة بين الإنسان وكل تلك الظواهر في نفس الوقت.

انطلاقا من هذا كان لابد أن يكون للأنثروبولوجيا مناهج مميزة وطرق وأدوات تسمح بتحقيق الأهداف المختلفة في دراسة الإنسان وسلوكاته المتعددة.

وسنحاول في بحثنا هذا الوقوف على هذه المناهج والطرق المتعددة في لدراسة الأنثروبولوجية، وقد تناولت في هذا البحث: مدخل لتعريف المنهج العلمي عموما والمنهج الأنثروبولوجي خاصة ودروه في دراسة الإنسان، والتركيز على طرق وأدوات البحث الأنثروبولوجي، والصعوبات التي تواجه الباحث في الميدان والتي تحول دون تحقيقه لأهداف بحثه.

I-مدخل : مفهوم الأنثروبولوجيا وعلاقتها بالعلوم الأخرى:

1- مفهوم الأنثروبولوجيا

الأنثروبولوجيا علم دراسة الإنسان وهي تدرس الإنسان سواء كان في الأزمان السحيقة أو المعاصرة وكما تدرس طرق حياة الناس الذين يعيشون في الماضي السحيق، وكذلك طرق حياة الناس في الزمن المعاصر.[1]

فالموضوع الذي تهتم به الأنثروبولوجيا يتصف بالاتساع والتشعب، حيث تشمل على فروع وتخصصات متعددة يركز كل منها على أحد الأشكال المختلفة للخبرات البشرية، فالبعض يدرس الحقائق العلمية التي تكشف عن الإنسان الأول ويهتم بعض العلماء بدراسة اللغات التي كانت سائدة في الأزمان البعيدة، وكيف تطورت اللغات البشرية وتباينت، والبعض يدرس اللغات المعاصرة، وكيف تخدم هذه اللغات حاجات الاتصال البشري، وتهتم الأنثروبولوجيا كذلك بدراسة التراث والتقاليد والعادات، أي طرق التفكير البشري والسلوك والذي يصطلح عليه الثقافة، وقد أدى ذلك إلى اهتمام الأنثروبولوجيين بدراسة الثقافات القديمة وتنوع ثقافات المجتمعات المختلفة كما يحاول الأنثروبولوجيون الكشف عن أسباب تغير الثقافات أو إثباتها.[2]

2- الأنثروبولوجيا وصلتها بالعلوم الأخرى:

تعد الأنثروبولوجيا علم شامل حيث تشترك وتتصل بجميع العلوم الأخرى خاصة منها العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، تشتمل العلوم الإنسانية على الفن واللغات والموسيقى والفلسفة والتاريخ وتمتد الدراسات الأنثروبولوجية إلى كل هذه العلوم، حيث تهتم بدراستها وتفسيرها وتحليلها وتتناول كل منها من خلال حقبات زمنية وأمكنة معينة. على سبيل المثال عندما تدرس الأنثربولوجيا الفن يقوم الأنثروبولوجيون بجمع معلومات وفيرة عن الفن الشعبي للثقافات الغريبة عن التقاليد المعاصرة، والتعرف على الدور الذي يؤديه الفن في المجتمع والثقافة، وأيضا عندما تتجه الأنثروبولوجيا نحو التاريخ، فهي تفعل ذلك من خلال أحد فروعها الذي يعرف بعلم آثار ما قبل التاريخ، ومن خلال الدراسات الأركيولوجية يمكن فهم ثقافة عصور ما قبل التاريخ أي قبل أن توجد السجلات التاريخية.

وتلتقي الأنثربولوجيا مع العلوم الطبيعية حيث تستمد منها تحليلاتها وتفسيراتها وذلك من خلال توظيف وتطبيق ما تشتمل عليه من العلوم مثل البيولوجيا والكيمياء والجيولوجيا والايكولوجيا، فالتحليلات الكيميائية تساعد الأنثربولوجيين في معرفة طبيعة المخلفات والرواسب المادية سواء كانت للكائنات الحية النباتية أو الأدوات والتي يعبر عليها علماء الاركيولوجيا في الحفريات، ويساعد علم الجيولوجيا في الكشف عن الطبقات الأرضية والحجرية وتحديد العصور

1- د. محمد حسين غامري: مقدمة في الأنثربولوجيا العامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص ص 13- 14.
2- فرانسوا لابلاتين: مفاتيح الأنثرولوجيا، ترجمة حفناوي عمامرية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص 07.

حسب مراحلها التاريخية والتي تنتمي إليها الطبقة الأرضية التي عثر فيها على المخلفات المادية سواء كانت حيوانية أو نباتية أو أدوات.[1]

وتوضح المعلومات الايكولوجية التأثير المتبادل بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها، وتعتبر البيولوجيا مصدرا وفيرا للمفهومات والمعلومات التي يمكن استخدامها في تشريح أجسام الكائنات الحية وعلم وظائف الأعضاء مما يساعد على فهم التطور والسلوك، ومن خلال إلتقاء الانثربولوجيا مع العلوم الطبيعية، يستطيع الباحث أن يفهم ظاهرة التنوع الثقافي في المجتمعات المختلفة.

كما تستفيد الانثربولوجيا من عدد كبير من العلوم الاجتماعية مثل الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم السياسة والإحصاء والقانون والجغرافيا.[2]

وهكذا نرى أن علم الانثربولوجيا لا ينفرد بدراسة الإنسان، إنما يشترك في ذلك مع عدد كبير من العلوم الأخرى وبالتالي تعدد مداخله ووجهات الدارسين وتعدد مناهج البحث الانثربولوجي، لأن الانثربولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد أو منعزل، وإنما تدرسه ككائن اجتماعي يحيا في مجتمع، وعليه حقوق وواجبات، ويؤدي وظائف اجتماعية، ويعيش في ثقافة، وينتشر في الأرض زمرا ومن ثم فهي تدرس الإنسان كعضو في المجتمع من ناحية، ومنشئ للثقافة من ناحية أخرى، كما تدرس الإنسان في كل زمان ومكان، فهي تهتم بتاريخ الشعوب التي تفتقر إلى التاريخ المسجل أو المكتوب، ونمو الحضارات منذ أقدم الأشكال التي وصلتنا عنها أي سجلات أو بقايا.[3]

II- منهجية البحث الانثروبولوجي :

1- تعريف المنهج:

كلمة منهج في معناها اللغوي مشتقة من نهج الطريق أي سلكه وسار فيه، والنهج هو الطريق المستقيم والمناهج هي الخطة المرسومة، والمنهج هو الطريق البين إلى الحق في أيسر سلبه، ويقابلها في اللغات ذات الأصل اللاتيني في الفرنسية Méthode وفي الإنجليزية Method وكلها مأخوذة عن اللاتينية Methodus المأخوذة بدورها من اليونانية Methodos وتعني " بحثا " وقد استعملها أفلاطون بمعنى " المعرفة " واستخدمها أرسطو بمعنى " البحث " وبالتالي يكون معناها طريقة العلم أو الطريقة العلمية، إذن فالمعنى الإجمالي من كل اللغات يشير إلى الطريق الذي يسلكه الباحث للوصول إلى الحقيقة العلمية.[4]

1- د. محمد حسين غامري، المرجع السابق، ص ص 14 -15.

2- د. حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثربولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2003، ص ص 59 – 68.

3- د. محمد عبده محجوب: مقدمة في الأنثرولوجيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ص 67-70.

4- د. ميلود سفاري: أساسيات في منهجية وتقنيات البحث في العلوم الاجتماعية، منشورات جامعة قسنطينة، 2006/2005، ص 06.

يجمع أغلب المفكرين على تعريف المنهج على أنه أسلوب في الاستقصاء ونحوه، لكن المفكر رايت ميلر (C.Wright Mills) يعطى تعريف مغايرا تماما لهذه المعاني حيث يقول: « يهتم المنهج في المقام الأول بكيفية طرح الأسئلة والإجابة عنها مع التأكد من أن هذه الأجوبة تتمتع بقدر معين من الديمومة » [1]

وقد وردت كلمة منهاج في القرن الكريم في سياق الحديث عن الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه من توراة وإنجيل حيث قال: [وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهمينا عليه فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة] (المائدة : 48).

2- علم المناهج (المنهجية):

جاءت كلمة المنهجية أو علم المناهج من كلمة Methodology / Méthodologie في اللغات الأوروبية مركبة من كلمتين: Method / Méthode ومعناها الطريقة وكلمة Logie / Logy ومعناها في الأصل اللاتيني " علم " أو " دراسة " على درجة عالية من التجريد وتترجم هذه الكلمة إلى العربية مرة على أنها " منهجية " كما هو معتمد في الغالب في المقررات الدراسية الجامعية، وتعرب أحيانا أخرى تحت تعبير " علم المناهج ".

وقد تعددت مستويات استخدام هذا المصطلح وتعددت فهومه بحيث أصبح يحمل معاني مختلفة وحتى متباينة أحيانا، كما تفرعت التصنيفات التي وضعها له علماء الاجتماع خاصة بين كونه تخصصا علميا أم هو تخصص فلسفي يمثل أحد فروع الفلسفة وخاصة المنطق أم هو عبارة عن الإجراءات العامة للبحث أي أنماط الاستقصاء وأساليبه وتقنياته، وهناك من يذهب إلى وصف المدارس الفكرية بمختلف توجهاتها بأنها تمثل أنماطا متميزة للتفكير أو مناهج للتفكير تفرض مناهج للبحث. [2]

ومما نخلص إليه من تعاريف مختلفة للمناهج أنها التقنيات والأساليب التي يستخدمها الباحث أو العالم في علم معين من العلوم المختلفة لمعالجة ظاهرة ما قصد فهمها وفك عناصرها ومركباتها المختلفة (من معاني ودلائل وجزئيات ... إلخ) للوصول إلى قوانين وحقائق منطقية يقبلها العقل ويقتنع بها الدارسين.

3- المنهج العلمي وأهدافه:

نبدأ هذا العنصر من تحديد أهداف العلم كما جاء في مؤلف " التفسير العلمي " للمفكر براتويت Braitwait حيث يوضح وظيفة العلم: « إن وظيفة العلم هي إقامة القوانين العامة التي تحكم اكتشاف الأهداف الواقعية، أو المسائل التي يبحثها، ومن ثم تساعدنا على الربط بين ما

---

1 - د. ميلود سفاري، المرجع السابق، ص08.
2- د. ميلود سفاري، المرجع السابق ص 11-15.

توصلنا إلى معرفته من أحداث كما يمكننا من التوصل إلى تنبؤات ثابتة بتلك الأحداث التي لا تزال غير معروفة ويقول مارشال ووكر M. walker في مؤلفه " طبيعة التفكير العلمي" من أن فهم الوقائع هو الوظيفة الرئيسية للعلم، والفهم هنا يعبر تعبيرا صادقا عن النتيجة الأخيرة للبحث عن الحقيقة، ويستخدم العلماء كلمة الفهم بمعنى اصطلاحي محدد، فإذا تم التنبؤ بحادثة معينة عن طريق قانون ثبتت صحته في التنبؤ بحوادث أخرى مماثلة والتأكيد على أن وظيفة العالم هي الملاحظة، والوصف، والتحليل والتفسير، في حين ركز جميع المفكرين على النتائج التي يريد العلم أن يتوصل إليها ممثلة في فهم الظواهر من خلال بحث علاقاتها بغيرها من الظواهر التي تسبقها، أو تلازمها ثم استخدام هذه العلاقة الوظيفية في التنبؤ بنتائج أخرى لمواقف جديدة، وأخيرا استخدام كل من الفهم، والتنبؤ في السيطرة، والتحكم في الظاهرة، وذلك عن طريق توجيه الظروف التي ترتبط بحدوث هذه الظاهرة. (1)

كما تناول باحثا آخر هو " فوراستيه " أهداف العلم من خلال التركيز على المنهج أو خطوات البحث العلمي والأهداف التي تحققها كل خطوة من خطوات البحث. ويوضح فوراستيه « أن المسعى العلمي يمكن تحليله إلى ثلاثة أوجه كبيرة أو ثلاث خطوات أو ثلاث مراحل رئيسية، وهي: ارتياد الوقائع وإنضاج الفرضية، ومراقبة الفرضية والانتفاع بها»

أ- ارتياد الوقائع: والمقصود بها هي المئات أو الألوف من الملاحظات التي يجمعها الباحث وتتمثل في وصف الظواهر والوقائع الكثيرة شريطة أن نطبق بدقة قواعد الملاحظة العلمية بما يرتبط به من إجراء التحري، والمراقبة والمقابلة وتسجيل المشاهدات واستخدام الأدوات المساعدة أو اللازمة في إتمام الملاحظة العلمية.

ب- إنضاج الفرضية: الفرض العلمي هو تخيل وجود علاقة أو رابطة غير مدركة تصل بين بعض الحقائق الملاحظة ويعتبر اكتشاف هذه الرابطة من أكثر الأعمال العلمية أهمية، فعلى أساس الملاحظة قد تبنى الفروض، لتوضيح العلاقات بين الحقائق، كما قد تبنى الفروض على أساس الاحتمالات والحدس أيضا، فعندما يشير الحدس إلى تفسير محتمل لفكرة حيوية ومحورية، فإن ذلك يعتبر أساسا لبحث مثمر ويعد ذلك بمثابة فرضا تفسيريا، أو إجرائيا، فالفرض العلمي ما هو إلا تصور لعلاقات متبادلة بين عدد من المفاهيم، أو هو فكرة تأتي عن طريق الحدس بشأن علاقة بين متغيرين، أو بين عدد كبير من المتغيرات، وللفرض أهمية كبيرة في البحث العلمي، إذ أن الفرض هو الذي يوجه الباحث إلى اختيار الحقائق المناسبة، واللازمة لتفسير الظاهرة موضع البحث حتى لا يضل طريقه في خضم الحقائق البعيدة عن الموضوع، أو عديمة الصلة به. (2)

1- د. عبد الله عبد الغني غانم: طرق البحث الأنثربولوجي، الطبعة الأولى، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2003، ص ص 31-32.
2- د. عبد الله عبد الغني غانم، المرجع السابق، ص ص 35-36.

جـ- مراقبة الفرض والانتفاع به: المقصود بمراقبة الفروض التحقق من صحتها والانتفاع بالفرض، واستخدامه في تحقيق ملاحظات جديدة، بل وتجارب جديدة أيضا حيث يسمح الفرض باستقراء صحيح لأحداث كانت تبدو مفككة، أولم تكن " ملاحظة أصلا "، والوصول إلى قوانين عامة يمكن الرجوع إليها في تفسير جميع الظواهر وعند التوصل إلى القانون الذي يحكم الظاهرة يسهل التحكم فيها والتنبؤ بها أيضا ويقتضي مراقبة الفرضية أو التحقق منها عمل تجارب متعددة ومتجددة، تثبت أن العامل موجودا حيث لم يكن منتظرا وجوده، وتوضح تفسير الفرض للوقائع التي لم نكن نفهمها من قبل. (1)

4- الاتجاهات النظرية في الدراسة الانثربولوجية:

انطلاقا مما رأيناه نرى أن الدراسة الانثربولوجية قد تنطلق من منطلق واحد وأن لا تكون لها نفس المداخل وتنتهي إلى نفس النتائج، وعلى هذا الأساس فقد سار علماء الانثربولوجيا في اتجاهات ومسارات مختلفة وكلها تهدف إلى دراسة وفهم الإنسان في ماضيه وحاضره من منظور كلي، واختلاف هذه المداخل أدى إلى ظهور اتجاهات مختلفة في دراسة الإنسان أو الظاهرة الأنثربولجية وتتمثل هذه الاتجاهات في:

أ- الاتجاه التطوري: ينطلق أصحاب هذا الاتجاه من أن السير الرتيب للإنسانية لا يمكن أن يكون اعتباطيا أو خاضعا للمسيرات الفردية والأهواء والمصادفات، ولكنه يقع في مراحل متعاقبة ينظمها قانون واحد يجمع في كلماته القصيرة كل تاريخ الإنسانية ويهتم هذا الاتجاه في الانثربولوجيا بدراسة الأصول وتخمين البدايات الأولى للنظام مثل أصل الدين وأصل اللغة، وأصل القانون، أي أنها تعالج مشكلات الأصول التي صدرت عنها النظم الاجتماعية، كما تهتم بالدراسة التتابعية إذ تحاول أن تتبع نشأة الظواهر الاجتماعية والثقافية، وتغيرها من حالات بدائية ساذجة بسيطة إلى حالات معقدة أكثر تركيبا، ومن حالة التجانس إلى التباين، وإيجاد العلل والأسباب التي توضح لنا كيف يحدث التغير في النظم. (2)

ب- الاتجاه الانتشاري: يفترض أصحاب هذا الاتجاه أن الاتصال بين الشعوب المختلفة قد نتج عنه احتكاك ثقافي، وعملية استعارة وانتشار ونقل بعض أو كل السمات الثقافية بملامحها المعنوية والمادية، أي العادات والعرف والتقاليد وغيرها من المظاهر الثقافية التي تشمل طرائق السلوك وتصرفات الناس وأفعالهم في حياتهم اليومية واختلافها من مجتمع إلى آخر، وبناءا على ذلك فإن تشابه النظم الاجتماعية والعادات في المجتمعات لا ينشأ عن النمو التلقائي الناتج عن الإمكانيات الاجتماعية والطبيعية للإنسان، وإنما توصل إليها شعب واحد في مكان معين، وفي فترة زمنية من تاريخه، ثم انتقل بعد ذلك كله أو بعضه من ذلك المجتمع إلى المجتمعات الأخرى.

1- د. عبد الله عبد الغني غانم، المرجع السابق، ص ص 40-41.
2- د. عاطف وصفي: الأنثربولجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت 1971 ص ص 39 – 65.

والمبدأ الأساسي الذي تسلم به معظم نظريات الانتشار أنه إذا تساوت كل الظروف الأخرى، فإن عناصر الثقافة ستتبناها أو تستعيرها أولا تلك المجتمعات القريبة إلى منابعها أو مصادرها الأصلية، وفيما بعد ستتبناها المجتمعات الأبعد أو المجتمعات التي يكون احتكاكها المباشر بالمنبع الأصلي أضعف منه في حالة المجتمعات الأولى. [1]

جـ الحتمية الاقتصادية: يرى بعض علماء الاقتصاد أن الاقتصاد هو العامل الوحيد الذي يفسر الحياة الاجتماعية، وقد ظهر وانتشر هذا الاتجاه بوضوح بعد الثورة الصناعية الكبرى في أوروبا، وترى أن التحولات الاقتصادية التي يعرفها شعب ما هي التي تؤدي إلى تغير في طبيعة المجتمع وطريقة تنظيم السلوك الإنساني. [2]

د- الاتجاه السيكولوجي: ركز الكثير من الأنثربولوجيين على مدخل التحليل النفسي (علم النفس) لدراسة طبيعة الإنسان وشعور الأفراد والدوافع، ومحاولة دراسة سيكولوجية الشعوب البسيطة ودراسة الخصائص العقلية للمواطنين، ومن الموضوعات التي تم فحصها دقة الإحساس لاختلافات الضوء اختبار عمى الألوان، مدى السمع، القدرة على الشم والتذوق، الوزن فترة رد الفعل، قوة العضلات، الرسم والكتابة وتغيرات ضغط الدم تحت الظروف المختلفة. [3]

هـ الاتجاه البنائي الوظيفي: يعتبر من أهم المناهج الحديثة في التفسير والتحليل الأنثربولوجي وقد ظهر هذا الاتجاه كرد فعل للمدرستين النشوئية التطورية والمدرسة الانتشارية، فهي لم تعد تهتم بالماضي أو بتاريخ النظم الاجتماعية [4] بل تركز هذا اعتبارا أن بنية المجتمع تكون شبكة من العلاقات التي تربط بين الأشخاص التي تقوم بوظائف اجتماعية تتمتع بدرجة عالية من الثبات والاستقرار، وتتعين وتتجسد تلك العلاقات البنائية في أنماط مقننة من العادات والتصرفات الاجتماعية المعتادة التي تتسق مع تلك العلاقات و تعمل على تعقيمها واستقرارها، كما تحقق تلك الوظائف المقننة، وبقول آخر فإن تلك العادات والتصرفات الاجتماعية المعتادة التي تظهر في المواقف المختلفة إنما هي تعبير عن ذلك التكامل الوظيفي تفرضها مراكزهم، ويتخذ ذلك التكامل الوظيفي أنماطا عديدة في المجتمعات والثقافات المختلفة. [5]

و- الاتجاه المعرفي: وجه أصحاب هذا الاتجاه انتقادات كثيرة لأصحاب الاتجاه البنائي الوظيفي بسبب اعتمادهم على سلوكات الأفراد الظاهرة وما يقوم بينهم من علاقات على أرض الواقع، وإغفالهم الجانب الحركي (الديناميكي) في دراسة الثقافة الإنسانية، أدت هذه إلى تبني نظرية جديدة في الدراسة تتناسب مع التغيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي أعقبت الحر بالعالمية الثانية ومن هنا برزت فكرة النظرية المعرفية في دراسة الثقافة الإنسانية، والتي تبحث في طرائق تفكير

1- Pqge 3http://www.moefporum.net/vb1/showthead.php?t=4882&/12

2-- د. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، المرجع السابق، ص 25

3- د. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، المرجع السابق، ص 26

4- http://www.moefporum.net/vb1/showthead.php?t=4882&/12.

5- د. محمد عبده محجوب مقدمة في الانثربولوجيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص 181.

الناس وأساليب إدراكهم للأشياء والمبادئ التي تكمن وراء هذا التفكير والإدراك ومن ثمة الوسائل التي يصلون بواسطتها إلى كل منهما.

وقد أعطى هذا الاتجاه المعرفي مفهوما جديدا للثقافة وطبيعتها الفكرية الثقافية باعتبارها تشكل " خريطة معرفية إدراكية " (حسب جيمس داونز في كتابه الطبيعة الإنسانية) فالخريطة الإدراكية لأي شعب من الشعوب تحتفظ بملامح عامة ومقومات أساسية وثابتة ولكنها مع ذلك لا تخلوا من بعض الاختلافات والتفاصيل الدقيقة من جيل إلى آخر، لا بل من فئة اجتماعية إلى أخرى، وفي المرحلة الزمنية الواحدة، وهذا يعني أن لكل مجتمع تصوراته الخاصة عن العالم والكون، تختلف عن تصور غيره من المجتمعات الأخرى. [1]

III- خطوات البحث الأنتربولوجي وأدواته:

1- العمليات التحضيرية للبحث:

أ- تحديد موضوع الدراسة: أو ما يسمى بمشكلة البحث وعند اختيار موضوع البحث يجب أن يراعي الباحث تحديد موضوع الدراسة بلغة واضحة تماما، ذلك أن اللغة التي يصاغ بها موضوع البحث كفيلة بإبراز النقاط الهامة التي يجب أن يتناولها الباحث بجانب أنها تمكن الباحث من استنباط نقاط اهتمام مختلفة متتالية وبالطبع فإن على الباحث أن يبين أهمية مشكلة بحثه العلمية، ويبرز الجدوى من دراسة هذه المشكلة، كما أن على الباحث أن يدعم رأيه ببعض الأدلة والشواهد، كأن يوضح ما يمكن أن يقدمه بحثه من حلول للمشكلة، أو ما يقدمه من إضافات علمية، وبعد اختيار موضوع البحث يجب أن يعمد الباحث إلى اختيار مجتمع البحث وهناك من الباحثين من يفضل اختيار مجتمع البحث أولا وانطلاقا منه يمكن أن نحدد موضوع البحث.

ب- قراءة ما كتب عن موضوع البحث ومجتمع الدراسة والهدف من هذه القراءات التي كتبت حول مجتمع الدراسة تؤدي إلى تطوير فروض بحثه وتحديد نقاط الاهتمام في دراسته.

جـ- تحديد المداخل الأساسية التي سوف يستخدمها في دراسته لتحليل الظواهر المدروسة، والنظرية التي تشكل إطاره المرجعي في عملية التفسير (سبق التطرق إليها بالتفصيل). [2]

2- الدراسة الميدانية وأدوات البحث الأنثربولوجي:

لقد وصفت أقوال الرحالة والمستكشفين الأوائل وجنود الاستعمار الإنسان البدائي بالمتوحش أو الحيوان الفظ، ثم جاءت بعض التقارير على العكس من ذلك تماما تصفه بالإنسان الرقيق المهذب الذي يعيش على الطبيعة في رخاء وسلام، ومن هنا يظهر التناقض الكبير في الوصف،

1- http://www.moefporum.net/vb1/showthead.php?t=4882&/12

2- عبد الله عبد الغني غانم: طرق البحث الأنثربولوجي، الطبعة الأولى المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2004، ص ص 97 – 101.

ويعود هذا إلى أن هؤلاء الأوائل من المستكشفين وحتى الباحثين لم يكونوا مزودين بالقوانين والأدوات العلمية الضرورية والحقيقية لدراسة ثقافات ومجتمعات هذه الشعوب البدائية. [1]

ومع نهاية القرن التاسع عشر بدأت تظهر إمكانية تطبيق المنهج العلمي في الأبحاث الأنثربولوجية عن طريق الدراسات الميدانية وتتمثل في ملاحظة الواقع الاجتماعي مباشرة أي أن يقوم العالم نفسه بجمع المعلومات بطرق بحث معينة ثم يقوم بتحليلها وبالتالي يستطيع أن يتأكد من استخدام المنهج العلمي في جمع المعلومات ويعتمد الأنثربولوجيون في تطبيق المنهج العلمي أثناء دراساتهم الميدانية على طرق بحث معينة أهمها ما يلي:

أ- الملاحظة بالمشاركة: وتتلخص في أن يشارك الباحث في الأنشطة الاجتماعية التي يمارسها أعضاء المجتمع قيد البحث ومن خلال تلك المشاركة يدرس ثقافتهم ويقابل الباحث في بداية دراسته الميدانية مشكلة كبيرة وهي (الدور) الذي يجب أن يؤديه لكي يحصل على معلومات موضوعية، وترجع أهمية تلك المشكلة إلى الحقيقة القائلة بأن تواجد الباحث في مجتمع أو قبيلة ما تدفع الأفراد موضوع الملاحظة إلى تغيير سلوكهم العادي أو إلى الإدلاء بأقوال لا تعبر عن الواقع وذلك لشعورهم بأنهم خاضعون لملاحظة الغير ولذلك على الباحث أن يقوم بدور ما في المجتمع بحيث يترتب عليه أن يقبله أفراد المجتمع وكأنه واحد منهم وبالتالي يكتسب ثقتهم ويبدد الشكوك حول مهمته وإبعاد شعور العداء الذي يواجه الغريب عندما يدخل مجتمعا ما لأول مرة، وهكذا يذهب الأنتربولوجي إلى المجتمع الذي يدرسه ليعيش فيه فترة من الزمن (لا تقل عن ستة أو ثمانية أشهر) لاكتساب ثقة الأفراد وجمع المعلومات اللازمة، ولابد للباحث أن لا يكتفي بالملاحظة عن بعد ولكن يجب أن يتعلم أسلوب حياتهم والمفاهيم السائدة ويشعر بالقيم التي يعتنقونها ويعمل معهم ويشاركهم الطعام واحتفالاتهم وارتداء ملابسهم وفي بعض الأحيان يدخل كعضو في جمعياتهم إذا سمحت النظم الاجتماعية بذلك، وعليه طوال الفترة أن يكتب تقريرات يومية عن كل صغيرة وكبيرة تقابله، وعندما تتضح له فكرة عامة عن أسلوب المعيشة في المجتمع يبدأ في التحليل والكشف عن عناصر الثقافة والترتيب البنائي للمجتمع حتى تصبح دراسته مفهومة وواضحة. [2]

يحدد العالم إيفانز بريتشارد (في كتابه الأنثربولوجية الاجتماعية) شروط نجاح الملاحظة بالمشاركة فيما يلي:

1- أن تسبقها مرحلة تخصص ودراسة نظرية كافية في الأنثربولوجيا عامة والعلوم الاجتماعية وخاصة علم الاجتماع، ويفهم من ذلك ضرورة الحصول على الدرجة الجامعية الأولى على الأقل في أحد فروع العلوم الاجتماعية قبل القيام بالدراسة الميدانية وتطبيق الملاحظة بالاشتراك.

1- إ. يقنز بريتشارد: الأناسة المجتمعية وديانة البدائيين في نظرية الأناسيين، ترجمة حسن قبيسي، الطبعة الأولى، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان – 1986 ، ص 85.

2 -Jean Lopans: L'enquête ethnologique de terrain/11, édition: claire hemmaut.1998 P P 34 – 38.

2- على الباحث أن يقضي فترة كافية في الاشتراك مع أفراد المجتمع موضوع الدراسة في معيشتهم، ويجب ألا تقل تلك الفترة عن عام، ويرى بعض العلماء أن ستة أشهر قد تكون كافية، ولاشك أن تحديد الفترة الكافية يرتبط بعوامل متعددة مثل حجم المجتمع وطبيعة المشكلة المراد دراستها دراسة مركزة.

3- أن يكون الباحث طوال فترة الملاحظة على صلة وثيقة بالأهالي ويتم ذلك عن طريق اشتراكه في معظم جوانب حياتهم الاجتماعية.

4- على الباحث أن يستخدم في حديثه مع أفراد المجتمع موضوع الدراسة لغتهم الوطنية، ولا يستخدم المترجم، إذا كثيرا ما يفشل المترجم في نقل الأفكار والمعاني بدقة كاملة.

5- وعليه أيضا أن يدرس كل جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية وإن كان قد يدرس موضوع معين بالتفصيل، وفي الغالب لا ينشر الباحث سوى جزء يسير من دراسته، ولكن الدراسة الكلية للمجتمع ضرورية حتى يستطيع فهم الجانب التفصيلي وتحديد وظائفه.

6- لابد من توفر نوع معين من الشخصية والمزاج، فبعض الناس لا يستطيعون تحمل مشاق العزلة عن وطنهم الأصلي فغالبا تكون الحياة في المجتمع موضوع الدراسة قاسية، وخاصة أن الظروف غير الصحية تنتشر في المجتمعات البدائية، هذا بالإضافة إلى تعرض الباحث لتغيير عادات الطعام والمسكن والملبس والمشرب، ولذلك لا يستطيع الكثيرون تكييف أنفسهم عقليا ونفسيا وجسميا مع تلك الظروف الجديدة.

7- على الباحث أن يتخلى عن قيمه وثقافته بقدر المستطاع حتى يستطيع تحقيق الملاحظة الموضوعية، ولاشك أن الأفراد الذين يتقنون الملاحظة يستطيعون الوصف الدقيق للمجتمع، ولكن عندما ينتقلون إلى مرحلة الفهم والإدراك العميق فإنهم يحتاجون إلى الكثير من الحدس. ويجب عدم إغفال أهمية مزاج الباحث وطباعه، فقد يحدث أن يخفق أحد البحاث في دراسة مجتمع معين ولكنه يجنح في مجتمع آخر.

8- يحتاج الباحث لمهارة أدبية في نقل وصف وتحليل الثقافة المدروسة إلى لغة الباحث نفسه، إذ عليه أن يبين ويشرح معنى الظواهر الاجتماعية والثقافية التي لاحظها وأن يبرز هذا المعنى بوضوح في صور تجاربه الأخرى، ويقتضي ذلك المجهود مهارة في إدراك وتمييز الصيغ والنماذج اللغوية، ولا يفهم من ذلك أن على الأنثروبولوجي أن يكون أدبيا حتى ينجح في عمله وإنما يكون قادرا على التعبير والكتابة بلغة واضحة سليمة. [1]

وفيما يتعلق بتدوين التقارير اليومية فمن الضروري تدوين كل المعلومات (حول الحادثة أو الظاهرة) في أقرب فرصة متاحة بعد الملاحظة مباشرة ويجب أن يكون التسجيل يوميا على الأقل وأن يشمل تقرير مطول عن حوادث اليوم كما عليه أن يتحاشى التسجيل خلال الحوادث إلا

1- د. عطف وصفي: الأنثربولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ص ص 287-288.

للضرورة، لأن ذلك قد يسبب له انقطاعا في التركيز في متابعة الظاهرة ورصدها، وقد يسبب تحول سلوكات الأشخاص محل الملاحظة أو تذمرهم.

يشدد مالينوفسكي (في كتابه مغامرو المحيط الهادي الغربي ص 64-65) على أهمية الملاحظة بالمشاركة، وضرورة معاينة الوقائع الظاهرة ثم الظواهر المعقدة الأخرى ويبرز أهمية تقنية المشاركة بقوله: « أثناء نزهتي الصباحية في القرية، كان بوسعي أن أعاين التفاصيل الحميمة للحياة العائلية، والاعتناء بالهندام وإعداد الطعام، وتناول الوجبات:

كان بوسعي أن أرى تهيؤ القوم للقيام بأعمالهم اليومية، أن أرى أشخاصا يذهبون لجلب حاجاتهم، أو جماعات من الرجال والنساء منهمكين في إعداد شيء من الأشياء. كانت المشاجرات والممازحات، والمناكفات العائلية، والأحداث العابرة التي لا أهمية لها والتي تتخذ طابعا دراماتيكيا في بعض الأحيان لكنها تظل دائما ذات دلالة ومغزى، تشكل مناخ حياتي كل يوم كما تشكل مناخ حياتهم. ولأن الأهالي كانوا يروننني طيلة الوقت بينهم، فإن وجودي لم يعد يربكهم ولا يثير لديهم قلقا أو انزعاجا. منذ ذلك الحين، لم أعد أشكل عنصرا مشوشا للحياة القبلية التي كنت أدرسها، ولم يعد مجرد اقترابي من أي شيء كفيلا بإفساده على نحو ما يحصل عندما يوجد قادم جديد بين طائفة من البدائيين. والواقع أنهم لما تيقنوا من أنني سأظل أتدخل على الدوام في كل الشؤون والأمور، بما فيها تلك التي لا تخطر ببال أي من أبنائهم المهذبين أن يتدخل فيها فقد انتهى بهم الأمر إلى اعتباري جزءا من أجزاء وجودهم وعنصرا من عناصره، أو شرا لابد منه، أو هما لا سبيل إلى تلافيه تخف وطأته عند توزيعي بعض التبغ عليهم.

بعد ذلك، وخلال فترة النهار، لم يكن يغرب عن انتباهي أي شيء مما كان يجري حولي. أما حالات الاستنفار التي كانت تحصل عند المساء مع قدوم الساحر، أو تلك المشاجرة أو المشاجرتان الصاخبتان، أو تلك الخلافات الجدية التي كانت تدور ضمن الطائفة، فضلا عن حالات المرض، ومحاولات علاجها، والوفيات، والطقوس السحرية [...] التي من المفترض أداء شعائرها، فإن مشاهدتها لم تكن تستوجب مني أي جري وراءها أو أية خشية من تفويتها، إذ كانت تحدث أمامي، وتحت بصري، وعلى مقربة من عتبة بابي إذ جاز القول. وينبغي أن أشدد هنا على أن من الأهمية بمكان أن يشرع الباحث بالتحقيق على الفور ما إن يحصل شيء دراماتيكي أو رئيسي. إذ أن الأهالي لا يسعهم أن يمتنعوا عن التعليق على ما يجري، فيكونون عندئذ على درجة من التوتر تحول دون تعبيرهم عنه بالكلام المتروي، أو يكونون على درجة من الاهتمام به تحول دون امتناعهم عن إضافة شتى التفاصيل إليه. لذا كنت في أحيان كثيرة أضطر إلى الإخلال بأصول اللياقة، الأمر الذي كان يحمل الأهالي، وقد رفعت الكلفة بيننا، إلى تنبيهي إليه. فكان علي أن أتعلم أصول التصرف، كما كان لي أن أدرك، إلى حد ما " مغزى" العادات الحسنة والسيئة التي يتمتع بها أهالي تلك البلاد. بناء عليه، ولأنني كنت قد توصلت أيضا إلى الارتياح إلى صحبتهم وإلى

مشاطرتهم بعض ألعابهم وتسلياتهم، فإنني أخذت أشعر بأنني قريب منهم بالفعل وهذا أمر لاشك في أنه يشكل شرطا مسبقا من شروط أي نجاح في العمل البحثي ». [1]

ب- طريقة المقابلة: منها:

- **طريقة المقابلة غير الموجهة:**

يستخدم الأنثربوبوجي أثناء الدراسة الميدانية بالإضافة إلى طريقة الملاحظة بالاشتراك طريقة " المقابلة غير الموجهة" وتتمثل في مقابلة بعض أفراد المجتمع الذي يتمتعون بصمعة طيبة في المجتمع موضوع الدراسة، ويحاول في المقابلات الأولية اكتساب ثقتهم بحيث يفتحون له قلوبهم ولا يحاولون تزييف الحقائق، وفي المقابلات التالية يبدأ الباحث في توجيه الأسئلة لهؤلاء " المبلغين" ويتيح لهم فرصة الإجابة المطولة دون توجيه الإجابة وجهة معينة، وعندما ينتقلون في الحديث من موضوع لآخر لا يحاول قطع الحديث وإنما على العكس يشجعهم بكلمة أو أخرى تزيد من حماسهم في الاسترسال في الحديث حول الموضوع الذي يهم الباحث، ويمكن للباحث تدوين تلك المعلومات أو تسجيلها بالآلات الحديثة إذا كان قد اكتسب ثقتهم، وفي حالة عدم اكتساب تلك الثقة يمكن تدوين النقاط الأساسية بطريقة لا تثير الشك، وفي بعض الأحيان لا يكتب الباحث أية معلومات أثناء المقابلة غير الموجهة، وإنما عليه تدوين كل ما سمعه بعد المقابلة مباشرة حتى لا ينسى بعض عناصرها. وتتلخص أهمية هذه الطريقة في أنها تتيح فرصة إظهار سمات شخصية الأفراد وإعطاء معلومات تفصيلية عن الموضوعات التي تدور حولها الأسئلة. ولا توجد تلك المميزات في طريقة المقابلة الموجهة. [2]

- **طريقة المقابلة الموجهة:**

وتتمثل تلك الطريقة في استخدام استمارة تتكون من مجموعة من الأسئلة التي وضعت بدقة حول موضوع معين، وفي معظم الأحيان تشمل الاستمارة كذلك الإجابات المحتملة بحيث يمكن ملؤها بسرعة وتفريغها في جداول. وعلى الباحث أن يقرأ كل سؤال أمام الشخص المراد دراسته، ثم يسجل إجابته في الاستمارة ويتم ذلك غالبا بوضع علامة أو أمام إحدى الإجابات المكتوبة، ويلاحظ أن قراءة الأسئلة يجب أن تتم بصورة محايدة بحيث لا تؤثر على إجابات المستمع. وتستخدم تلك الطريقة في أبحاث علم الاجتماع، ولكنها غير منتشرة في الدراسات الأنثروبولوجية، ويرجع السبب في ذلك أن استخدام طريقة المقابلة الموجهة لا تنجح إلى في المجتمعات المتمدينة، أما في المجتمعات البدائية فإنها تثير شكوك الفرد لعدم تعوده على تلك الطريقة الرسمية في الحديث وخاصة أنه في الغالب لا يعرف الكتابة والقراءة ولم يحدث أن قابله أحد وأخذ يسجل أقواله، ولذلك

1- جاك لومبار: مدخل إلى الأنثربولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، الطبعة الأولى، 1997، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص ص 180 – 181.

2- د. عطف وصفي، المرجع السابق، ص ص 289-291.

لا يستخدمها الأنثربولوجيين إلا في المجتمعات المتمدنة وبجانب طريقة الملاحظة بالمشاركة وطريقة المقابلة غير الموجهة.

جـ طريقة مدخل تاريخ الحياة:

يميل الباحث في كثير من الأحيان إلى جمع مادة مكثفة عن أشخاص ذو فصاحة طبيعية، لأن الطبيعة الشخصية لتاريخ الحياة تمثل تمثيلا كاملا للمعلومات الثقافية لها أهميتها الكبيرة في فهم طرق الحياة الخاصة.

وتجمع مادة تاريخ الحياة عادة في محاولة لربط تجريدات الوصف الأثنوجرافي بحياة الأفراد في المجتمع، ونظرا لما يتيحه استخدام تاريخ الحياة من الحصول على معطيات شرعية تتناول ما يتخذه المبحوث عن قرارات هامة، ويكشف عن مشاعره إزاء الأشخاص والأحداث، وتحيط بدوافعه، وتبرز ما يقدمه من تبريرات ذاتية بجوانب أفعاله، إن ذلك يسهم إسهاما مباشرا في إتاحة الفرصة أمام الباحث الاجتماعي، لكي يفهم العمليات الحاسمة في تاريخ حياة الحالة موضع الدراسة. (1)

وتعتبر هذه الطريقة مهما جدا لأنها إذا استغلت بطريقة حسنة لتمكنة الباحث من حسن المشاهدة، وعمق التحليل، والموضوع الذي تتخذه طريقة تاريخ الحياة مجالا لها هو صوغ مجموعة من التفسيرات التي تعكس الخبرة الذاتية لفرد، أو جماعة إزاء مجموعة من الوقائع والأحداث التي تحدد الطريقة التي أصبح الفرد بمقتضاها عضوا في تنظيم أو في جماعة، أو سيرت اهتماماته على نحو أدى به إلى أن يسلك سبيل الإنحراف، ويتحقق ذلك من خلال تركيز الاهتمام على عرض خبرة الحالة موضع الدراسة في ظروف موقفها، وذلك من وجهة نظر هذه الحالة، واستجابتها لتلك الظروف، بحيث تبدوا نتائج دراسة تاريخ الحياة كما لو كانت قصة، يحدد فيها الباحث ردود فعل بطلها إزاء الأحداث الهامة التي يذكرها الباحث تفصيلا، ويعرضها في ضوء آراء واستجابات وتأويلات الشخصيات الأخرى الحاسمة في مجرى حياة الحالة الرئيسة موضوع الدراسة، هذا وتستند طريقة دراسة تاريخ الحياة في افتراض أساسي مؤداه أنه ينبغي دراسة سلوك الإنسان، وفهمه من خلال الكشف عن نظرة الإنسان القائم بهذا السلوك. (2)

د- طريقة الاختبارات النفسية:

قد يستخدم بعض الأنثروبولوجيين أثناء دراساتهم الميدانية بعض الاختبارات النفسية لتحديد خصائص شخصية أفراد المجتمع موضوع الدراسة، ومن أمثلة تلك الاختبارات " اختبار رورشاخ ".

1- عبد الله عبد الغني غانم، المرجع السابق، ص 126

2 -Jean Lopans: L'enquête ethnologique de terrain/11, édition: claire hemmaut.1998 P P 50 – 52.

ويتكون ذلك الاختبار من عشر لواحات، رسم على كل واحدة صورة مكبرة لنقطة حبر قذف بها على ورقة فاتخذت شكلا تغير منتظم ويطلب من شخص أن يصف ما يمكن أن يتصوره من أشكال عندما ينظر لكل لوحة، وعلى أساس ما يقرر الشخص يمكن التوصل إلى تحديد بعض خصائص شخصيته. ويجب ملاحظة أن قليلا من الأنثروبولوجيين الاجتماعيين يستخدمون الاختبارات النفسية، ولكن يستخدمها بكثرة الأنثروبولوجيين الذين يتخصصون في تحديد العلاقات والشخصية والثقافية في مجتمع ما.

هـ طريقة المقارنة:

لا يقنع الأنثروبولوجيين بوصف قطاعات الثقافة في المجتمع موضوع الدراسة وإنما يعمل على تحليل المعلومات الوصفية ليس في تحديد أنماط العلاقات الاجتماعية وإنما لفهم الثقافة ككل ويتم ذلك عن طريق الكشف عن الوظائف الاجتماعية التي تؤدها النظم الاجتماعية وكذلك الكشف عن التأثيرات المتبادلة بين النظم الاجتماعية وباقي النظم الثقافية، ولابد للوصول إلى تلك الصورة الكلية، وعلى الأنثروبولوجيين بعد الكشف عن طبيعة الثقافة والأنماط الاجتماعية الأساسية أن يقارن تلك الظواهر الاجتماعية والثقافية بمثليتها في المجتمعات الأخرى، ولاشك أن كل دراسة جديدة لكل مجتمع تساعد على توسيع مجال المقارنة، ويجب عند المقارنة استخدام الدراسات الميدانية التي يمكن الاعتماد عليها والثقة في موضوعيتها، ونقصد بذلك الدراسات الميدانية التي يقوون بها المتخصصون في الأنثربولوجيا بفروعها المختلفة أما الدراسات الميدانية التي يقوم بها الرحالة ورجال الصحافة وغير المتخصصين فهي لا تصلح للمقارنة.

يميل بعض الأنثروبولوجيين وخاصة المتخصصين في الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى تركيز دراساتهم الميدانية في مجتمع واحد أو عدد قليل من المجتمعات ويعرف هذا الاتجاه " بتقليد مالينوسكي" ويتلخص في التخصص في مجتمع واحد من ثلاث مجتمعات على الأكثر بحيث يقضي العالم حياته كلها في الكتابة عنهم وتحليل القطاعات الثقافية لكل منهم للوصول إلى فهم عميق لثقافة تلك التجمعات. ويؤمن العلامة مالينوسكي بأنه لا يمكن فهم ثقافة من ثقافات الشعوب البدائية إلا إذا درست دراسة عميقة مركزة، وقد نادى بضرورة القيام بدراسة ميدانية مركزة واحدة على الأقل قبل التخصص في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ومعظم الجامعات في العالم قد استجابت لذلك النداء وجعلت الدراسة الميدانية شرطا ضروريا للحصول على الدرجات الجامعية العالية في الأنثروبولوجيا. ولاشك أن أوضح مثال لذلك الاتجاه دراسات العلامة مالينوسكي ذاته، فقد استغرقت دراسته الميدانية " التروبرياندر " بمنطقة ميلانيزيا مدة أربع سنوات وكان أول من استخدم لغة الأهالي لجمع المعلومات وقد أتاحت له هذه المدة الطويلة فرصة التغلغل والتعمق في الحياة الاجتماعية عند تلك القبائل ووضع عنها عدة مؤلفات تدور كلها حول ثقافتهم. ولاشك أن تقليد مالينوسكي يتعارض بعض الشيء مع اتجاه إجراء المقارنات بين الأبنية الاجتماعية

للمجتمعات المختلفة لأنه يركز اهتمام العالم بمجتمع معين بحيث يستنفذ هذا التركيز كل مجهودات العالم، هذا بالإضافة إلى أنه يؤدي إلى قلة عدد الدراسات مما يعرقل المقارنات وقد لاحظ العلامة "بريتشارد" تلك المشكلة ونادى بتطبيق نوع من المقارنة أطلق عليه اصطلاح " المنهج التجريبي"، ويتلخص في أن بقوم كل أنثربولوجي باستنتاج عدة نتائج من دراسته العميقة لمجتمع واحد، ثم يقوم نفس الباحث أو باحث آخر من صحة وواقعية تلك النتائج بالنسبة لمجتمعات أخرى، وهكذا تتسع دائرة فحص تلك النتائج تدريجيا، وهي في الحقيقة لا تخرج عن كونها فروض وتصبح تلك الفروض في النهاية قوانين أو مبادئ عامة ومن العلماء الذين طبقوا هذه الطريقة العلامة " شنيدر " عندما فحص النتائج التي توصل عليها العلامة بريتشارد في دراسته لقبائل بريتشارد " النوير " عن طريق تطبيقها على قبائل " لزولوا "؛ وهناك مثل آخر يتمثل في دراسة العلاقة " نادل " الذي فحص ظاهرة السحر في أربعة مجتمعات إفريقية. ويرى العلامة " شابيرا " أنه يمكن المقاربة مكانيا ثم تتسع المقارنة تدريجيا. ويجب ملاحظة الفرق الكبير بين طريقة المقارنة المبينة فيما سبق وطريقة المقارنة التي استخدمها علماء القرن التاسع عشر، أن طريقة المقارنة المقصودة هنا تعمد على دراسات ميدانية موضوعية قام بها متخصصون وبالتالي تؤدي إلى مبادئ عامة وقوانين اجتماعية وثقافية، أما المقارنة التي طبقها علماء القرن التاسع عشر تعتمد على أقوال الرحالة وغير التخصصين وتقسم بالموضوعية ولذلك لم يترتب عليها سوى التأملات والتخمينات التي ثبت عدم واقعيتها. وكثيرا ما تحتاج المقارنة التحليلية إلى استخدام المناهج الإحصائية واستخدام العينات وقد لاحظنا ذلك في دراسات العلامة " ميردوك ". [1]

IV- الصعوبات التي تواجه البحث الأنثروبولوجي:

يواجه البحث الأنثروبولوجي معوقات وعقوبات مختلفة متفاوتة في درجتها يمكن تحديدها على الشكل التالي:

1- صعوبات تختلف بالاختلاف التدرجي للمجال التقليدي للبحث الأنثربولوجي:

يشير كلود ليفي ستراوس إلى هذه النقطة بالقول:" من الناس من يعتقد أن الأنثربولوجيا مقضي عليها بالاندثار مع مادتها التقليدية التي نتناولها بالدراسة، وهي الشعوب البدائية، ولكي تظل الأنتربولوجيا على قيد الحياة فمن المفترض عليها أن تتخلى عن بحثها الأساسي، وتكرس نفسها لمشكلات الدول النامية من جهة وإلى الظواهر المرضية التي من الممكن ملاحظتها في مجتمعاتنا من جهة أخرى " وعلى ذلك برزت إلى الوجود الأنثربولوجيا التطبيقية إلى جانب استمرار مهام المجال الكلاسيكي للأنثربولوجيا، ومع ذلك لا يجب أن نقلل من الانقراض السريع المفزع لما يسمى بالشعوب البدائية في جميع أنحاء العالم. بالإضافة إلى خطر آخر يواجه البحث الأنتربولوجي يتمثل في أن بعض الشعوب في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ...إلخ كانت تتمتع

1- د. عطف وصفي، المرجع السابق، ص 291-294.

دائما بكثافة سكانية مطلقة، هذه الكثافة تتزايد الآن، وهؤلاء السكان قد تجاوزوا مدى دراسة الأنثربولوجيا، لا بسبب أنها قد اختفت بل بسبب أنها قد تغيرت، فحضارتهم تطورت بسرعة في اتجاه النماذج الغربية، بالإضافة إلى العداء الذي ظهر بعد استقلال هذه الشعوب اتجاه الأثربولوجيين حيث بدأ اتجاه عدائي من جانب هذه الشعوب أو صفوتهم يعتبرون تقاليدهم القديمة وعقائدهم علاقة من علامات التأخر الحضاري التي يرغبون في تحرير أنفسهم منها بأسرع ما يمكن، ومن ثم فهم يوجهون اللوم للأنثربولوجيين لاهتمامهم بهذه العادات، وإضفائهم قيمة وهمية عليها، وهذا ما شكل صعوبة كبيرة أمام الباحثين الأنثربولوجيين في قيامهم بأداء أدوارهم. [1]

2- صعوبات ترتبط بطبيعة المنهج الأنثربولوجي:

وهي تتمثل فيما يواجهه الباحث الأنثربولوجي في الميدان أو في مجال عمله الحقلي ومنها ما يرتبط بالمنهج الأنثربولوجي نفسه، وما يقتضيه من إقامة في منطقة أو مجتمع البحث (مخاطر الحيوانات – الأمراض ...إلخ) ولمدة طويلة.

ضرورة تعلم لغة الأهالي عندما تختلف عن لغة الباحث وغير ذلك، بالإضافة إلى العدوانية من طرف سكان بعض القبائل التي قد تصل إلى حد القتل مثل ما حدث لـ: مانجو بارك الذي قتل بالنيجر، وهيوكلا برتون وغيرهم.

بالإضافة إلى هذا فإن صعوبة تعلم لغة الأهالي وفك رموزها ومفاهيمها هي من أصعب المهام التي تواجه الباحث، فعادة عندا يزور الأنثربولوجي أفراد غرباء فإنه يكون لديه بعض التصورات مثل (الله) و (القوة)، (العائلة) .... إلخ، قد لايجد لها نفس المعاني والدلائل عند المجموعة المدروسة وهذا يؤدي به إلى تفسير الظواهر المختلفة تفسيرا خاطئ. [2]

3- صعوبات ترتبط بشخصية الباحث ذاته:

هناك نوعان من الصعوبات ترتبط بشخصية الباحث تعترض البحث الأنثروبولوجي، وأول هذه الصعوبات – تنبع من ذات الباحث، وأعني به التحيز وعدم تحري الموضوعية، أما النوع الثاني من الصعوبات التي ترتبط بشخصية الباحث فتتمثل فيما يواجه الباحث الأجنبي يعاني – عادة – من مشاكل ترتبط بالأوضاع السياسية والاجتماعية، ومن الغريب أن يكشف مؤتمر عن المشاكل التي تواجهها البحوث الأنثروبولوجية في أمريكا اللاتينية عن أن المصاعب التي يعاني منها الباحث الزائر، وقد تبين – مثلا – أن عدم الاستقرار في أمريكا الوسطى يجعل من الخطر القيام بإجراء دراسة ميدانية، سواء كان القائم بهذا البحث باحثا أجنبيا أو محليا، ويشكل ما يسمى الآن بتسييس العلوم الاجتماعية عقبة كبيرة أمام الباحث الأنثروبولوجي، حيث تطلب بعض البلدان

1- د. عبد الله عبد الغني غانم، المرجع السابق، ص 186.
2- د. عبد الله عبد الغني غانم، المرجع السابق، ص ص 189 – 190.

من الباحث الأنثروبولوجي أن يعبر بحثه أساس عن الولاء السياسي، وليس من السهل عموما أن يكون الباحث موضوعيا فيما يتعلق بالمسائل التي تهدد وتشوه الالتزامات السياسية أو غيرها من الالتزامات الاجتماعية، وعموما فإنه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة يتأثر الأنثروبولوجي، بالجو العلمي العام، كما أوضحت الدراسات الأنثربولوجية أن هناك مشكلة أخرى تحد من كفاءة الباحث الأنثروبولوجي، حيث تبين أن الظروف قد تفقد الأنثروبولوجيين قدرتهم – تماما – على الحركة، بحيث يصبح أي تدخل منهم ضارا جدا بعملهم كأنثروبولوجيين، فمثلا عندما تتوزع الجماعات الجماعية في مناطق محددة كل منها، على أساس أمني يصبح الأنثروبولوجيون غير مرغوب فيهم، سواء المحلي منهم أو الأجنبي الذي اتهم – دائما – بأنه نصيرا للاستعمار. [1]

وانطلاقا من هذه الصعوبات يجب على الباحث أن يراعي العديد من الاعتبارات أثناء بحثه وعند كتابته تقريره ومنها:

- مراعاة مستوى المبحوثين واتجاهاتهم وظروفهم المتغيرة في دراسة المجتمعات البدائية يجب أن تكون الأسئلة التي يطرحها الباحث على مبحوثه بسيطة وواضحة وأن لا تكون ساذجة أي أن يطرح الباحث سؤال عن ظاهرة يراها كل سكان المجموعة بديهية ومعروفة، كما يتجنب طرح أسئلة عن شخص ما في وجود سيده أو شيخ القبيلة أو شيخ كبير، ويلجأ الباحث إلى الأفراد ببعض الأشخاص ليسألهم حول نفس الأمر من أجل الوصول إلى مقارنات تعطي نتائج أدق وقد يلجأ الباحث إلى إثارة حماس الأفراد من المجموعة المدروسة من خلال التحدث معهم حول البطولات والأسلحة ... إلخ من يجرهم إلى الكشف عن ما يريد.
- مراعاة ما يطرأ على المجتمعات البشرية من تغير دائم: يجب أن ينتبه ويتذكر الأنثروبولوجي أن المجتمع الذي يبحثه يعيش في مرحلة تغير بما في ذلك المجتمعات البدائية التي تتمسك بتلك العادات والتقاليد التي ترى أنها أساس وجودها والحقيقة أنه لم يعد هناك مجتمع بدائي منعزل تماما عن التحولات الكبرى التي يعرفها العام، خاصة بعد الثورة الصناعية والعلمية والتوسع الاستعماري للرجل الأبيض في كل القارات وما أحدثه من تحول في طبيعة حياة هذه المجتمعات. فعلى الباحث أن يميز بين ما هو أصيل وما هو دخيل في ثقافة وتصرفات وسلوكات هذه المجتمعات. [2]

كذلك فإن الباحث الأنثروبولوجي وهو يدرس المجتمعات الحديثة المحلية عليه أيضا مراعاة عدة متغيرات أساسية منها:

- مراعاة تقاليد المجتمعات، فيجب ألا يسأل عن أمور تتنافى مع قيم المجتمع وتقاليده.

1- د. عبد الله عبد الغني غانم، المرجع السابق، ص 190.

2- فرانسوا لابلاتين: مفاتيح الأثربولوجيا، ترجمة حفناوي عمامرية، مركز النشر الجامعي، تونس 2000، ص ص 19 – 20.

- أن تكون الأسئلة التي يوجهها الأشخاص واضحة بسيطة، وأن يجزأ الموضوع إلى عدة موضوعات صغيرة متكاملة.
- أن تكون المصطلحات واللغة المستخدمة مرتبطة بالوقائع المختلفة للظاهرة الاجتماعية أو الثقافية. [1]
- أن يلتزم الباحث بالقوانين والعادات التي تحكم المجموعة وأن لايبدي معارضة لها طوال فترة تواجده داخل المجموعة المدروسة.
- يجب ألا يصدق الباحث أو يرفض ما ينقله الإخباري من معلومات وما يصدره من أحكام بل يجب أن يسجلها كما جاءت ثم في مرحلة لاحقة يحاول التأكد منها وتسجيل الملاحظات كما عاينها وأن لا يكتف بتسجيل الاستنتاجات لأنها قد تكون خاطئة. [2]

4- صعوبات ترتبط بتطبيق الطريقة الأنثروبولوجية في دراسة المجتمعات المعقدة:

إن الدراسات الكثيفة والواسعة التي أجريت على المجتمعات البدائية أو الشبه المنعزلة جعلتهم يتفقون على نمط عام في تحليل ودراسة المجتمعات البشرية والعمليات الاجتماعية المختلفة ويقوم هذا النمط على ثلاث ميكانيزمات هي:

أ- تفاعل نفس الأشخاص والمجتمعات في مواقف مختلفة، تفاعلا يجعل التزاماتهم تجاه جماعة معينة يؤثر في سلوكهم في مواقف أخرى وجماعات أخرى.

ب- تحليل العلاقة بين عناصر الثقافة من ناحية والعلاقات الاجتماعية من ناحية أخرى.

جـ- التأكيد على العلاقات المستمرة بين الأنشطة الاجتماعية في تلك المجتمعات المختلفة والمناشط الاجتماعية، فالأنشطة الشعائرية، والدينية والقانونية والسياسية على الرغم من اختلاف كل منها عن الأخرى، إلا أنها ت تبدو متداخلة ومترابطة ببعضها في أغلب جماعات ومواقف تلك المجتمعات، لدرجة أن كل نشاط يعتمد على غيره من المناشط.

ولكن الدراسات الأنثربولوجية الاجتماعية في مجال المجتمعات المعقدة (خاصة المجتمعات المعاصرة والحديثة) لم تحل جميع المشاكل المرتبطة بهذه المجتمعات، فالميكانيزمات التي استخدمتها تلك الدراسات لم تكن مؤثرة وفعالة، وأوضحت هذه الدراسات أن الأنماط المختلفة من الأنشطة الاجتماعية أو الشعائرية أو... إلخ في أغلب المجتمعات المعقدة غير مرتبطة ببعضها وغير متداخلة بقوة، كما هو الحال في المجتمعات المحدودة النطاق، فكل نمط من النشاطات يميل إلى أن يتبلور ويكون قالب أو إطار تنظيم، أو نظام مستقل بذاته، وهذا ما جعل من الصعوبة

1- د. عبد الله عبد الغني غانم، المرجع السابق، ص ص 191 – 199.
2- د. عبد الله عبد الغني غانم، المرجع السابق، ص ص 200 – 2001.

معرفة الوظيفة الدقيقة لأية جماعة داخل البناء الاجتماعي الكلي في المجتمعات المعقدة، أو معرفة الوظائف الكاملة التي تنجزها أية جماعة في المجتمع في المجالات السياسية والاقتصادية... إلخ.[1]

خاتمـــــــــة:

إن مارأيناه في بحثنا هذا من خصوصية تميز الانثربولوجية بمناهجها وطرق وأدوات بحوثها تجعل منها علما واسعا يشمل مختلف التخصصات والعلوم ويأخذ منها لخدمة المعرفة العلمية الدقيقة والمتميزة بعمق التحليل والقدرة على التفسير الدقيق رغم كل ما حققته الانرثبولوجيا من تطور كبير من حيث أوعية البحوث المنجزة وتطوير للمناهج العلمية وتحديها للصعوبات التي تواجهها خاصة بتراجع المجال التقليدي لموضوع بحثها وهو المجتمعات البدائية فإنها تطور أكثر فأكثر ويوم بعد يوم لدراسة وفهم الإنسان في حياته العصرية بكل ما تحمله من تعقيد واتساع وانفصال للنشاطات والأدوار التي يقوم بها الفرد.

وهذا ما فتح الباب واسع أمام الباحثين الانثربولوجيين لتوسيع أبحاثهم ومعارفهم.

ونختم هذا بما أشار إليه المفكر تلود ليفي شراوس حول مستقبل الانثربولوجيا: « ... لكي تظل الانثربولوجيا على قيد الحياة، فمن المفروض عليها أن تتخلى عن أبحاثها الكلاسيكية، وتكرس نفسها لمشكلات الدول النامية من جهة، وإلى الظواهر المرضية التي من الممكن ملاحظتها في مجتمعاتنا من جهة أخرى ... ».

1- إ. يقنز برتشار، المرجع السابق، ص ص 106 – 107.

قائمـــــة المراجـــــع

1- جاك لومبار: مدخل إلى الأنثربولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، الطبعة الأولى 1997 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب.

2- د. عاطف وصفي: الأنثربولجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت .1971

3- فرانسوا لابلاتين: مفاتيح الأنثربولوجيا، ترجمة حفناوي عمامرية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص 07.

4- د. محمد عبده محجوب: مقدمة في الأنثربولوجيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية .1987

5- د. حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثربولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، .2003

6- د. محمد حسين غامري: مقدمة في الأنثربولوجيا العامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

7- د. عبد الله عبد الغني غانم: طرق البحث الأنثربولوجي، الطبعة الأولى، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، .2004

8- إ. يقنز بريتشارد: الأناسة المجتمعية وديانة البدائيين في نظرية الأناسيين، ترجمة حسن قبيسي، الطبعة الأولى، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيرت، لبنان، .1986

9- د. ميلود سفاري: أساسيات في منهجية وتقنيات البحث في العلوم الاجتماعية، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، 2006/2005، ص 06.

10- Jean Lopans: L'enquête ethnologique de terrain/11, édition: claire hemmaut.1998.

11- http://www.moefporum.net/vb1/showthead.php?t=4882&/12